دراما عراقية .. لم تنقلها الفضائيات!

من انقذ المركز الوطني للمخطوطات من اعمال السلب والنهب؟

عامر القيسي
تصوير/ سمير هادي

لم يكن المنظر مألوفاً، امام المركز الوطني للمخطوطات، عندما توقفت سيارة حمل (نوع هينو) امام بناية المركز، صباح يوم ٢١ / ١٢ / ٢٠٠٢، لتقوم مجموعة من منتسبي الدائرة، بمشاركة فاعلة واشراف مباشر لحظة بلحظة من قبل المدير العام الحالي للمركز السيد عبد الله حامد، بنقل ١٥٠٠ عام من الذاكرة العربية والاسلامية، في ٣٥ رحلة مكوكية نقلوا فيها ٤٢٦ صندوقاً حديدياً، احتوت على ٤٧ الف مخطوطة من اثمن مخطوطات التاريخ العربي والاسلامي، لينتهي هذا العمل الجبار يوم ١٥ / ٣ / ٢٠٠٣ أي قبل اندلاع الحرب الاخيرة بخمسة أيام.

(لقد تحوّلنا جميعاً إلى حمالين و تهيأنا لكل الاحتمالات). هكذا يقول السيد المدير العام للمركز على لسان ابطال هذا الفصل التراجيدي الحقيقي من فصول الغيرة العراقية الاصيلة للحفاظ على تراث، لو كتب له ان يضيع أو، يحرق أو يسرق لما كان بالامكان تعويضه إلى الابد.

ولكن السؤال. اين ذهبت المخطوطات مع صناديقها؟

وما قصة الامريكان في محاولة نقلها؟

وما دور الناس من غير منتسبي الدائرة في حمايتها؟

اسئلة تحتاج إلى جولة ليست سهلة للحصول على الاجوبة الشافية؟

قصة اسماء عبد الكريم

التقينا بداية مع الموظفة اسماء عبد الكريم وهي رئيسة قسم الفهرسة والدراسات، ماجستير آثار التي اكدت لنا صحة المعلومات التي بحوزتنا، بشأن عملية انقاذ المخطوطات، واضافت: لم ننقل المخطوطات فحسب، بل نقلنا كل ما استطعنا من اجهزة حاسبات. ونظراً لضيق الوقت فقد رفعنا العقل الالكتروني من كل جهاز، ليبقى جهازاً عادياً عديم المنفعة. وفي اثناء هذه الفترة قمنا بإفراغ محتويات المخطوطات في الحاسبات في عمل شاق كنا نبقى فيه بعمل متواصل حتى الثامنة مساءاً.

و اضافت: لقد تراكمت لدينا خبرة في عمليات الاخلاء، فخلال الازمات والتوترات العسكرية، كنا نقوم بأعمال اخلاء للحفاظ على محتويات المركز. لكن هذه المرة كان توقعنا اكيداً ولم نحافظ على المخطوطات فقط، بل حتى على المخطوطات المودعة لدينا من مؤسسات اخرى، وقمنا ايضاً بنقل الحاسبات وكاميرات التصوير والافلام التي صوّرت عليها المخطوطات.

موظف وحمّال

عباس فاضل الشمري، مسؤول استعلامات قام بترقيم كل الحقائب الحديدية كخطاط (سنأتي لاحقاً على قصة الحقائب أو الصناديق الحديدية) يقول: لقد تحولنا خلال فترة الاخلاء إلى حمّالين فقد قمنا بحملها بأيدينا وعلى ظهورنا، ومنا من تمزقت ملابسه وهو يحمل هذه الصناديق، والآخر اصيبت احدى فقراته جراء ثقل الاحمال. لقد كان عملاً شاقا بكل المقاييس بالنسبة لعددنا وطاقتنا (لقد لاحظنا ان عباساً مصاب بعوق في ساقه اليسرى ورغم ذلك كان احد المساهمين بهذا العمل!) تركناه، ولنا عودة معه، لماله من دور في حراسة المبنى ايضاً في الفصل الثاني من فصول انجازهم الوطني هذا.

قصة سهير زكي

الموظفة (سهير زكي) ضيفتنا أكثر من مرة بـ (القهوة المهيلة) فمنتسبو المركز الوطني للمخطوطات اسرة بكل معنى الكلمة.. هكذا يرددون دائماً.. وهكذا ايضاً يلاحظ الزوار. وسهير زكي موظفة في قسم صيانة المخطوطات تقول: لقد حافظنا على المخطوطات من خلال ترميمها وخياطتها وترقيع القسم الآخر، ثم تم ادخالها إلى الحاسبات. ومنها مقامات الحريري ومصحف نادر من العصرالعباسي، وآية قرآنية بخط الامام علي (عليه السلام) ومخطوطات علمية في الطب والطب البيطري والتجميل وعلم النفس.. الخ.نقلناها جميعاً إلى مكان بديل خوفاً عليها من قصف الطائرات ولم يكن يخطر ببالنا اننا لو لم نفعل ذلك، لكان اللصوص البديل عن قصف الطائرات، ولكن المخطوطات نجت والحمد لله.

قصة الصناديق الحديدية

كل من التقيناهم كانوا يتحدثون لنا عن صناديق حديدية وترقيمات وارقام افلام . وهذا ما اثار فضولنا الذي حملناه للسيد مدير المركز السيد عبد الله حامد ، الذي شغل منصب امين عام الدائرة طوال العقدين الماضيين: قال لنا: تم ابلاغنا شفهياً بعملية الاخلاء لذلك قمنا بتحضير صناديق حديدية كانت موجودة لدينا. ولأنها لم تكن كافية لإنجاز العمل، فقد تم شراء القسم الآخر من الاسواق المحلية (تصنيع محلي) وباشرنا بعمل قوائم لجميع المخطوطات المحفوظة لدينا وحسب التسلسل وبثلاث نسخ، حفظت الاولى داخل الصندوق والثانية الصقت على سطح الصندوق أو بجانبه والثالثة اودعت في الدائرة. وقد رقمت الصناديق بعد اقفالها بحيث يتطابق رقم الصندوق مع رقم المفتاح الخاص بها ليتسنى لنا الاستدلال على أي مخطوط، نوفره لمن يحتاجه من الباحثين والطلبة.

❖ وكيف اخترتم المكان؟

– لقد كانت هذه مشكلة.. ولكننا استطعنا العثور على مخزن في مكان امين وسري. ولم يفصح مدير المركزالسيد عبد الله حامد لنا عن المكان حفاظاً على الذاكرة العراقية على حد تعبيره وأضاف: ان عودة هذه المخطوطات مرهونة بإستتباب الوضع الامني.

تنبغي الاشارة هنا إلى ان المركز يقع في شارع حيفا، الذي تحصل فيه بإستمرار تفجيرات ارهابية واعمال عنف وعمليات عسكرية وبالتالي فإن وضع هذه الثروة الوطنية النادرة في مكان غير آمن حالياً قد يعرضها لخطر القذائف العمياء.

صباح الدبابات.. قصة عبد الله حامد

((افقت صباح يوم ٩ / ٤ / ٢٠٠٣، على صوت لا يشبه صوت الطائرات التي اعتدنا عليها أو الصواريخ التي كانت تعبر فوقنا، وحين نزلت إلى الشارع، كانت امام عيني، قرب مبنى وزارة العدل المجاور دبابة امريكية. لم اصدق عيني بادئ الامر. ناديت على الحارس شاكر وسألته، ان كان ما اراه حقيقة ام خدعة بصرية. وهل هي دبابة عراقية ام امريكية؟ لكن الحقيقة كانت اكبر من كل الاسئلة والتصورات والخدع البصرية)). هكذا جسد لنا مدير المركز صباح ذلك اليوم وقد دمعت عيناه، وواصل: وما هي الا ساعات قلائل، حتى بدأ التدفق على الشارع، واقتحام البيوت والمؤسسات وسرقتها والعبث بها من قبل مجموعات متنوعة من الاشخاص. واعطيت تعليمات بضرورة الدفاع عن المركز بكل الطرق والوسائل. لالحمد لله الذين كانوا معي كانوا بمستوى المسؤولية.

اثناء حديثنا والتأثر البالغ لمدير المركز. دخل علينا الحارس شاكر عبد الكاظم. الذي حدثنا عن دوره قائلاً: لقد بقيت في المركز من لحظة سقوط صدام وبداية السرقة والنهب. في البداية سرقوا دار توفيق السويدي، رئيس الوزراء في العهد الملكي التي هي جزء من المركز ثم توجهوا إلى الدور الأخرى، وقد حاولوا سرقة المركز فإنهال الرصاص على المركز من داخل المصرف الذي امامنا. ولكنهم فشلوا وفي اليوم التالي جاء الامريكان. وللعلم فقط كان شاكر يعمل بأجرة مقدارها الف دينار يومياً فقط. وكان معه في كل تلك الأيام السود كما يصفها قاسم الخطاط الذي جلب معه شقيقه واصبحا يبيتان مع شاكر بعيداً عن عائلتهما برغم الظروف الصعبة. نسأل فقط ماذا لو بقى في كل مؤسسة اربعة حراس مسلحين. هل كان بالامكان تدميرها إلى هذا الحد؟!!

قصة ام طيف

لكن من كان يساعد على كل هذا التألق في المواقف؟

لا بد ان يكون هناك جنود مجهولون. ام طيف مثلاً تسكن في الدار القريبة من المركز، وهي زوجة مدير المركز السيد عبد الله حامد، كانت تقدم لهم الطعام لمساعدتهم على الصمود. هذا الفعل البسيط شكلاً المؤثر جوهراً في تلك الأيام العصيبة نجح في ان يديم موقفاً نوعياً من طراز فريد، تمثل في انقاذ المركز ببيوته التراثية وموجوداته من النهب والتدمير والحرق كما حدث في معظم المؤسسات الرسمية الأخرى.

العراقي: ليس علي بابا!!

مرّت عربة لأحد اللصوص محملة بأغراض متنوعة مسروقة يتطلع الجندي الأمريكي بوجه الحارس شاكر ويسأله:

❖ لماذا مستر شاكر ليس علي بابا!

فيجيبه من خلال المترجم العربي الذي كان معهم – العراقي ليس علي بابا.

ويتعرض المركز ليس لضغط اللصوص والامريكان وانما كانت ضغوطات من جهات اخرى(أحزاب، منظمات) احدهم مثلاً يجلب معه موافقة الامريكان لإشغال الدار لكن المدير العام للمركز السيد عبد الله حامد (وكان آنذاك اميناً للدائرة) رفض ان يسلم الدار، فكان فعله منسجماً تماماً مع منصبه السابق، وتكرر هذا الامر مراراً مع زملائه الآخرين. آخرين كانوا يأتون كل يوم وبعضهم ادعى انه الوريث الشرعي الوحيد للدور التراثية! وسألنا الحارس شاكر:

❖ وماذا حصل امام عينيك؟

فقال: اتى الامريكان والصحافة الاجنبية وبشر سحناتهم عربية، ودخلوا إلى بيت جعفر ضياء (وهو عالم ذرة عراقي.. وللامانة فقد اخذوا الكثير من الوثائق التي كانت موجودة في الدار!

السيد عبد الله حامد
مدير المركز

يبلغون القوات الأمريكية عن السرقات فتفتح لهم محضراً بإزعاج (السلطات)!

المواطنون يمنعون اللصوص اولاً والامريكان ثانياً من اخذ المخطوطات

محضر أمريكي

استطاع بعض اللصوص تفكيك بعض الابواب والشبابيك والاغراض الأخرى من احد البيوت التراثية وتحميلها في سيارة حمل استعداداً لنقلها. فما كان من مدير المركزالسيد عبد الله حامد الا ان يسرع إلى اقرب موقع عسكري أمريكي يبعد عشر دقائق مشياً على الاقدام لإخبارهم بالسرقة ومنعها. وفي الفترة الزمنية وبين ذهابه وعودته، كانت الموظفات قد استطعن مراوغة اللصوص واقناعهم بأن هذه الاشياء لا تساوي شيئاً.

ترك اللصوص هذه البضاعة الفقيرة التي يقدر سعر الباب الواحدة منها بنصف مليون دينار عراقي، وجاء الامريكان من خلال سطح البيوت، ركضاً وطفراً وهرولة معهم مدير المركز. وبعد ان وصل الجنود الامريكان مع جنرالهم وعرفوا ان القضية تتعلق بسرقة ابواب وشبابيك تراثية اخذوا معهم مدير المركز وفتحوا له محضراً بتهمة تعريض حياة الجنود الامريكان مع عوائلهم للخطر!!

التهمة كانت بكل بساطة: بلاغ كاذب للسلطات!!

البحث عن المخطوطات

يبدو ان عملية الاخلاء، اسالت لعاب بعض العصابات المختصة، التي حاولت بعد انفلات الوضع الامني الذهاب إلى المكان البديل للمخطوطات لكن اهالي الدور الملاصقة منعوهم من الوصول اليها، وحالوا دون سرقتها، وقد حاولنا الالتقاء ببعضهم الا ان السيد عبد الله حامد وعدنا بأن نجري اول تحقيق صحفي مع هؤلاء الاهالي الذين كان لهم شرف انقاذ المخطوطات، ولكن بعد ان يستتب الوضع الامني على نحو يكفل سلامة المخطوطات.

طبيب المخطوطات

حين دخلنا إلى غرفةالموظف رحيم المرمم، كان يرتدي صدريته البيضاء منكباً على طاولة وضعت عليها مجموعة من الاوراق الصفر القديمة (هذا هو عملي) قال لنا وأضاف: انها مهمة شاقة وفنية. في هذا القسم نرمم المخطوطات التي تتعرض للتلف. ونحاول الآن اعادة عمل القسم وتطويره.

فالمخطوط يحتاج إلى جو خاص ليحافظ على سلامة ورقه. فعليك ان تؤمن درجة حرارة من ١٨ – ٢٦ درجة مئوية ونسبة رطوبة من ٤٥ – ٦٥ بالمئة فضلاً عن التحكم بشدة الضوء والتهوية وغيرها من المواصفات الفنية التي يسعى المركز لتوفيرها في المستقبل. وعندما شبهت عمله بالطبيب ابتسم واجاب كلّ في مجال عمله طبيب.

وذكر لي المدير العام للمركز السيد عبد الله حامد ان بعض منتسبي المركز مكلفون بواجبات اخرى اليوم، منهم الزميل كريم نصيف الذي فتح منزله لحفظ بعض موجودات المركز اثناء الحرب وبعدها واسهم في عملية نقل المخطوطات واخلائها إلى المكان البديل مع زملائه الآخرين.

قصة الجنود المجهولين

ولكن الذي حصل فيما بعد، ان القوات الأمريكية استطاعت معرفة المكان، وذهبت لنقل المخطوطات إلى مكان آخر، وفعلاً استطاعت نقل بعض الصناديق لكن المواطنين اعتبروها امانة مودعة لديهم، ورفضوا ان تأخذها القوات الأمريكية، واخذوا يحاججون الجنرال الأمريكي. وبالرغم من ان الامريكان عرضوا مبلغ خمسة دولارات، لكل مواطن مقابل كل صندوق ينقل إلى عجلاتهم المدرعة لكن الرفض كان في مواجهتهم، وحينها استقر رأي الامريكان بعد ان رأوا حماس العوائل العراقية لحماية المخطوطات بأنفسهم واولادهم، على اعادة الصناديق التي اخذوها، إلى اماكنها. فتطوع المواطنون فرحين وبكل خفة لإعادة هذه الصناديق الثمينة إلى اماكنها السرية!!

البيوت التراثية ايضاً

يسكن السيد عبد الله حامد المدير العام للمركز في احدى الدور التراثية التابعة للمركز والملاصقة له وقد كان شاهداً على الاحداث بكل تفاصيلها، وكان من المدافعين الاشداء عن محتويات المركز والدور التراثية التابعة له. يقول: كنت عند صديق قديم عندما اخبروني بأن الدار التي اسكنها تتعرض للنهب. اسرعت إلى الدار وكانت عائلتي فيها واللص في المرحلة الاولى من عمله، فقد كسر قفل الباب تهيأ للدخول وحين وصلت جرى (الحوار) التالي مع اللص الذي وصل اليه (امداد) من لصين آخرين، فأحاطوا بي وحمل احدهم طابوقة بيده يهددني بها.

الموظف: هذه داري ولن تسرقوها!

اللص: (احترم نفسك ودعنا نأخذ ما نريد!)

الموظف: انت عراقي وانا عراقي. إذا كنت تريد السرقة سأعطيك ما تريد دون ان تتعرض للدار بشيء!

وكنت اقصد بذلك الاحتفاظ بالابواب والشبابيك ذات الطراز الثلاثيني الجميل والرائع.. وتشاء الاقدار، ان يأتي رئيس العصابة – على ما يبدو– الذي صرخ بجماعته:

– اتركوا الموضوع!

وأضاف: لقد استطعنا بجهود مشتركة الحفاظ على دارين من اصل ثلاث دور تراثية، و(تعاملنا) مع لصوص استحوذوا على احدى الدور وسكنوها مع عائلاتهم ونجحنا بعدم وجود دولة ولا شرطة ولا مؤسسات رسمية ان نأمن شرهم ، حتى اخرجناهم بقوة القانون.

دور للمثقفين .. دور لـ (المدى)

حدثنا مدير المركز عن دور بعض المثقفين العراقيين الذين ساعدوا على كتابة صفحات الصمود هذه بوجه همجية النهب والتدمير. وحملنا رسالة شكر وتقدير لهم وخصوصاً العاملين في جريدة (المدى) مثل الاستاذ حسين محمد عجيل والاستاذ سهيل سامي نادر، اللذان ترددا علينا أيام القصف والموت والظلام والقلق والمجهول، وأضاف ان مؤسسة (المدى) قد قامت بدورها الرائع من خلال الدعم المادي والاعلامي واقامة النشاطات غير الحكومية لحماية المؤسسات الثقافية . وكان لهذه المؤتمرات دور كبير في تعزيز عملنا ودفعنا لتقديم الافضل.

وبعد

الملفت لنظرنا ان هذه الجهود الاستثنائية المنطلقة من مبادرات ذاتية لحماية هذه المؤسسة الثقافية المهمة لم ينظر اليها من هذه الزاوية احد بعد الاستقرار النسبي للوضع وحتى الآن. فقد سألنا البعض من المنتسبين عن أي نوع من انواع المكافآت المادية أو المعنوية أو كتب شكر تسلموها قالوا لنا: ان مكافآتهم الوحيدة، هي انهم قاموا بواجبهم الوطني ولا ينتظرون من احد شيئاً سوى رضا ضميرهم ووطنيتهم على العمل الذي قاموا به ورضا الله عليهم بالدرجة الاولى.

قبل الحرب الاخيرة بخمسة أيام تم نقل ٤٧ الف مخطوطة من المركز

دور لمؤسسة (المدى) في معاونة حراس البيوت التراثية